التغيير في العالم

الإسلامي :

أزمة موضوعية أم ذاتية ؟

مُقَدِّمَة

إنّ الحمد لله نحمدُه ونستعينُه ونستغفِره ، و نعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيّئات أعمالنا ، من يهدِه الله فلا مُضِلّ له ، و من يُضْلِل فلا هادي له ، و أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، و أشهد أنّ محمّداً عبدُه و رسوله ، ﴿ يَا أَيُّها الذِينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَموتُنَّ إِلا وَأَنْتُم مُسْلِمونَ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقوا رَبَّكُم الذِي خَلَقَكُم مِن نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقوا اللهَ الذِي تَسَائَلونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّها الذِينَ آمَنوا اتَّقوا

اللهَ وَ قُولُوا قَوْلاً سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾

أما بعد ،

فإنّ أصدق الحديث كلام الله ، و خير الهَدي هَدي محمّد ﷺ ، و شرّ الأمور مُحدَثاتها ، و كلّ مُحْدَثة بِدْعة وكلّ بِدْعة ضَلالَة و كلّ ضلالة في النار .

و بعد

فإن الحركات الإسلامية التي نشأت في القرن العشرين ، و الرجال الذين قادوها استهدفوا التغيير من انشائها : تغيير واقع الشرك و الفقر و الابتداع و التبعية و القوانين الوضعية و الضياع الحضاري و الدولة العلمانية ، إلى واقع التوحيد و السنة و الاستقلال و التزام أوامر الشريعة

الإسلامية و العقل الحضاري و الدولة الإسلامية إلخ ....

فأين نحن من هذه الأهداف ؟
هل نحن في أزمة في مجال التغيير المنشود ؟ و لماذا ؟
هذا ما ستجتهد هذه الرسالة في الإجابة عليه .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

هل يمر العمل الإسلامي في أزمة ؟

يجب أن نعترف بأن العمل الإسلامي يمر في أزمة، وليس أَدَلّ على ذلك من عدد الساحات التي تعثر العمل الإسلامي فيها وما استطاع أن يصل إلى تمكين الإسلام ، و منها أخيراً ساحات تونس والجزائر ، التي رجحت فيها كفة الإسلاميين في بداية الصراع و ظهر أمل كبير في انتصارهم ، لكن جاءت النهاية على غير الأمل المتوقع .
والسؤال الآن : هل تكمن الأزمة في الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل الإسلامي ؟ أم تكمن في الظروف الذاتية للعمل الإسلامي ؟

وإذا كانت في الظروف الذاتية للعمل الإسلامي : ففي أي العناصر والعوامل ؟ هذا ما سنجتهد في الإجابة عليه .

ليس من شك بأن الظروف الموضوعية المحيطة بالعمل الإسلامي مناسبة للتغيير ، إن لم نقل مثالية ، فإن الأقطار العربية ، تعيش أزمات في مختلف المجالات. وسنتحدث عن بعض هذه الأزمات التي تعيشها منطقتنا العربية :

1 - أزمة شرعيّة :

تعي الشعوب في العالم العربي أن الحكومات التي تقودها لا تمتلك الشرعية ، لذلك فهي لا تحترم أوامرها ، وتنتهز أول فرصة للتفلت من كل ما يصدر عنها ، وقد أفرزت أزمة الشرعية هذه صورة خاصة في العلاقة بين المحكوم والحاكم ، أصبحت

الكراهية هي المشاعر التي يتوجه بها المحكوم نحو الحاكم ، وأصبح القهر هو الأسلوب الذي يتعامل به الحاكم مع المحكوم ، وأصبح المحكوم يتطلع باستمرار إلى تغيير الحاكم ويتقبل أي تغيير يحدث له .

2 ـ أزمة هويّة :

إن سعي بعض الحكومات إلى فرض أنماط التغريب على مواطنيها ، والاجتهاد في اقتلاعهم من عاداتهم وتقاليدهم الموروثة ، وتشكيكهم في كثير من قيم الدين الإسلامي ، عن طريق تدريس و نشر نظريات مخالفة و مصادمة لحقائق الدين الإسلامي ، ولّد ضياعا عند قطاع كبير من الناس ، وولّد صراعاً بين الأنماط المستغربة و الأنماط المحافظة في المجتمع

، مما أهدر طاقات كبيرة من طاقات المجتمع التي كان يفترض أن تتجه إلى البناء الحضاري.

3 - أزمة سياسيّة :

طرحت الدول العربية بعد استقلالها عن الاستعمار شعار الحرية ، وإقامة الديمقراطية والحرص على إقامة الوحدة بين الأقطار العربية ، وكانت الحصيلة استبداداً مريعاً ، جعل الناس يترحمون على أيام الاستعمار ، وحتى بدا فرعون الذي ضَرَبه القرآن الكريم مثلاً صارخاً للظّالم أكثر عدلاً وإنصافاً من بعض الحكّام ، وجاءت الممارسات الديمقراطية شكلية وخالية من أي محتوى حقيقي ، وغير مقنعة بصورة من الصور ، ومدعاة إلى الهزء والسخرية من أبسط الناس .

أما في مجال الوحدة فعلى العكس من ذلك فقد برزت القطرية ، وترسخت التجزئة ، وولدت دول لم تكن موجودة في أي مرحلة من التاريخ العربي والإسلامي ، وأصبحت هذه الدول ذات أناشيد وأعلام وجيوش وشعارات إلخ ... تزيد في تمزيق الأمة وتساهم في ترسيخ الحواجز بينها .

4 - أزمة اقتصادية :

وَعَدَتْ الحكومات العربية شعوبها بعد الاستقلال بالنمو الاقتصادي ، والرفاه المعاشي ، وعَيَّشَتْهم أوهام التصنيع وخيالات الاستقلال الاقتصادي عن الغرب ، لكن الحقيقة أن معظم البلاد العربية تعيش أزمات اقتصادية طاحنة في كل مجال ، وأصبحت كسرة الخبز ، ولقمة الطعام هما كبيرا يصاحب المواطن منذ الصباح إلى

المساء ، يستنزف طاقاته وإمكاناته من أجل الحصول عليها ، ناهيك عن استحالة توفر سكن يأوي إليه في بعض البلدان العربية ، كما أصبح يرى حكومته تعيش تبعية مذلة لدول الغرب ، وللمؤسسات الدولية فهي التي تتحكم في سعر رغيف الخبز الذي يأكله والحاجات التي يقتات منها فتأمر برفع أسعارها ورفع الدعم عنها .

5 - أزمة نفسيّة :

إن الأجهزة الأمنية عماد الدولة العربية الحديثة ، وتمارس هذه الأجهزة إرهاباً عنيفاً يحيط بكل شاردة وواردة مما جعل الناس يعيشون في قلق وإضطراب وفزع وخوف من المواجهة مع هذه الأجهزة ، ومما يزيد في اضطراب المواطن أن الدولة العربية الحديثة ربطت

حصول المواطن على لقمة عيشه بطاعة الدولة ، وإبراز ولائه لها مما جعله فاقداً للشعور بالأمان نتيجة الذل الذي يعانيه في تحصيل الحد الأدنى من ضروريات الحياة الذي هو شرط لازم من أجل استمرار وجوده .

6 - أزمة اجتماعية :_

اجتهدت الدولة العربية الحديثة أن تربط المواطن بدولته القطرية ، واستخدمت مختلف الأساليب التربوية والدعائية لتحقيق ذلك ، لكنها فشلت في ذلك فشلا ذريعا وأصبح المواطن لاينتمي إلى دولته ويأخذ تابعيتها ، بل ينتمي إلى طائفته أو قبيلته أو

عشيرته ، ويرتبط بها ويواليها دون أمته ، مما جعل الشعب الواحد مفتتا وممزقا إلى عديد من الحلقات الاجتماعية ، ولهذا أخطاره البعيدة والقاتلة على كيان الأمة الواحد .

سنة الله في التغيير :

لقد أشار القرآن الكريم إلى سنّة إلهيّة هي ابتعاث الله تعالى رسله وأنبياءه عندما يستحكم الشرك في حياة الناس ويعم الظلم ، وتستشري الرذيلة ، ويطم الفساد عند ذلك يأتي النبي أو الرسول فيدعو إلى التوحيد والعدل والطهر والفضيلة فيكون بمثابة الطبيب الذي يداوي جراحات الناس ، وبمثابة النور الذي يقشع الظلمات المحيطة بهم ، فكذلك واقعنا فإن استحكام الأزمات في حياتنا يستدعي تغييرا ، إذن نستطيع أن

نقول إن الظروف الموضوعية المحيطة بالحركات الإسلامية مناسبة ومساعدة من أجل القيام بعملية التغيير ، بل نستطيع أن نقول دون تردد إن الظروف الموضوعية تتطلبه وتلح إلحاحاً كبيراً على مجيئه .
وهناك عامل آخر يمكن أن يكون مساعداً للحركات الإسلاميه في التغيير ومرشحاً لها دون غيرها هو رصيد الإسلام الكبير والعميق في قلوب الناس وعاداتهم وتقاليدهم وفي مختلف مناحي حياتهم ، بحيث عندما تخاطبهم الحركة الإسلامية لا تجد عناء في اختيار المفردات ولا في بناء المصطلحات ، ولا في تحديد المطالب ، ولا في ذكر الشواهد ، فالإسلام معروف عند جماهير المخاطبين فهو مأخوذ من القرآن الكريم الذي يتلونه ويستمعون إليه في بيوتهم وفي مساجدهم ويحفظون بعض سوره وآياته ، ومستمد من تعاليم رسولهم محمد بن عبد

الله ﷺ الذي يعرفون كثيراً من تفصيلات حياته ، وهم قد توارثوا العلم بكثير من تفصيلات عبادات الإسلام من صلاة وصوم وزكاة وحج إلخ ... ، كما ألموا بكثير من سير عظماء الإسلام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم إلخ ...

وهم بالإضافة إلى كل ذلك ينظرون إلى التاريخ الإسلامي بعاطفة جيّاشة ملؤها التعظيم والشوق والحنين مقارنة بالواقع الذي يعيشونه والذي يُوَلّد بالمقابل في قلوبهم الأسى والحزن .

الخلاصة هي أن الظروف الموضوعية مساعدة كل المساعدة على التغيير سواء كان ذلك باستحكام الأزمات في حياة الناس وتطلعهم بالتالي إلى التغيير أم في قرب الخطاب الإسلامي إلى عقول الناس وقلوبهم

الذي يثمر سهولة التفاعل والتجاوب مع الحركات الإسلامية ، فهل الظروف الذاتية للحركة الإسلامية ناضجة ومبنية البناء السليم وقادرة على استثمار الظروف الموضوعية المحيطة بالأمة من أجل دفعها في مسار التغيير الإسلامي؟

الحقيقة إن هناك قصورا واضحا في مجال البناء الذاتي للحركة الإسلامية ، لذلك تعثرت في كثير من الساحات ، وسنحاول أن نلقي الضوء على بعض مجالات هذا القصور .

أولا : القصور في مجال بناء الفرد النفسي والعقلي

قد فقد المسلم المعاصر كثيرا من فعاليته النفسية والعقلية بالمقارنة مع مسلم القرون الأولى والوسطى ، وما ذلك إلا بسبب عناصر خارجية تداخلت مع المنهجية الإسلامية لامجال للحديث الآن عنها أو التفصيل فيها ، وإن القصور في الفعالية النفسية والعقلية والأمراض التي رافقتها كان يفترض أن تكون محط دراسة وبحث من قبل الحركة الإسلامية المعاصرة من أجل تحديد مظاهر النقص في الفعالية النفسية والعقلية ، والعوامل التي أدت إلى ذلك ، وكيفية المعالجة من أجل إعادة المسلم إلى حيويته السابقة ، لكننا نجد نقصا رهيبا في هذا المجال ، وعلى العكس تناولت

الحركة الإسلامية المسلم المعاصر بأمراضه التي ورثها و وظّفته في صفوفها ، ودفعته إلى المواجهة مع الحركات المعادية دون أن تبرئه من أمراضه ، مما جعله لا يعطي النتائج المرجوّة : حيث لم يَحتمل الضغوط الموجهة إليه نتيجة الخلخلة في بنائه النفسي([1])، ولم يحسن إدارة المعركة مع خصمه ، كما لم يحسن ترتيب أولوياتها ، وتحديد مساحاتها نتيجة الخلخلة في بنائه العقلي والقصور في منهجية التفكير السليم عنده .

---

[1] صدر كتاب لي بعنوان (جذور أزمة المسلم المعاصر - الجانب النفسي) ألقي فيه الأضواء على هذه المشكلة و أحلل جذورها في مجالين : العقائدي و الفقهي .

ثانيا : القصور في مجال بناء الجماعة :__

هناك ظاهرة ملفتة للنظر في العمل الإسلامي المعاصر هي أن الجماعات التي حملت لواء الإسلام في إطار أهل السنة بقيت محدودة الجماهير ، تعاني من قلة تفاعل المسلمين معها ، و قلة المقبلين عليها ، والمندرجين تحت لوائها ، وإن حدث عكس ذلك في فترة من فترات تاريخها فأقبلت عليها الجماهير ، فقد حدث ذلك لعوامل أخرى ليست العوامل الشرعية منها ، كما حدث أن تجاوبت الجماهير مع الإخوان المسلمين في مصر عام 48 وعام 50 عندما خاض الإخوان حربَيْ فلسطين وقناة السويس ضد اليهود والإنجليز ، ومع الطليعة في سورية عندما واجهت الحكم الطائفي في سورية الذي سلب الحكم من

أهل السنة ، ومع النهضة في تونس عندما حدثت أزمة رغيف الخبز ، ومع جبهة الإنقاذ في الجزائر عندما أحس الشعب بالضيق والضنك وتأكد أنه فقد كل شيء ، جاءت هذه الجماهير فانضمت إلى الجماعات الإسلامية لفترة قصيرة ، ثم عادت فانحسرت عن الجماعات الإسلامية وتركتها تواجه الحكام الطغاة وحدها .

والسؤال الآن : لماذا انحسرت هذه الجماهير عن الجماعات الإسلامية ؟

في تقديرنا أن انحسارها جاء نتيجة إشكالية يعانيها أهل السنة لم تجد الجماعات الإسلامية حلاً لها إلى الآن ، وهي شرعية ارتباط المسلم بالجماعة الإسلامية هل هو فرض؟ أم مندوب ؟ أم متروك لأهواء

المسلم وظروفه ؟ أم بحسب مصالح ومفاسد معينة ؟ أم حرام؟ ([2]) إلخ ....

نجد أنها تحتوي على كل الأجوبة السابقة ، وربما كان الاضطراب ناتجا من أن أهل السنة يواجهون لأول مرة في تاريخهم انفراط جماعة المسلمين التي كانوا ينتمون إليها ويرتبطون بإمامها الذي هو الخليفة ،وأن الفقه الإسلامي حَرَّم أي خروج على جماعة المسلمين ، و حَرَّم تشكيل أية جماعة أخرى تؤدي إلى تمزيق جماعة المسلمين ، وإن قيام بعض الفقهاء بسحب هذه الأحكام الفقهية التي كانت تعالج واقعا

---

[2] صدر لي كتاب بعنوان (الجماعة في الإسلام المشروعية و الإ'ار يبين الحكم الشرعي بخصوص انتماء المسلم إلى الجماعة ، و يوضح معنى الجماعة ، و مواصفات الجماعة محل الانتماء .

مختلفا على الواقع المعاصر يزيد في بلبلة المسلم المعاصر واضطرابه في اختيار الجواب .

لم تُلْق الجماعات الإسلامية الأضواء على الإشكال السابق ، ولم تعط الجواب الشرعي المناسب حتى الآن ، حتى يصبح انتماء المسلم إلى الجماعة المسلمة واجباً شرعياً وليس قضية شخصية و ليس حراماً ، وإلى أن تجد الجماعات الإسلامية حلا شرعيا لهذا السؤال وتوجِد المناخ الفقهي المعاكس لما هو شائع حاليا ، ستبقى الجماعات الإسلامية تعاني هشاشة في جماهيريتها ، ومواسم يقبل الناس عليها ثم يدبرون عنها عندما ينتهي الموسم أصل الإقبال .

ثالثا : القصور في فهم الواقع :

طرحت بعض الدول العربية بعد الاستقلال النظام الديمقراطي كإطار سياسي للدولة ، وخاضت بعض الجماعة الإسلامية اللعبة الديمقراطية ، وكيَّفَت نفسها معها ، ففتحت المقار ، ورفعت اللافتات وأعلنت البرامج ، وأقامت المهرجانات ، واجتهدت في استقطاب الجماهير ، وخاضت الانتخابات ، وفازت أحيانا وخسرت أحيانا أخرى ، لكن مفاجأة كانت تحدث في النهاية ، تشكل صدمة للقيادات قبل القواعد ، ويتشَكَّل واقع جديد مخالف للواقع السابق ، يبرز فيه الجيش ويقود السلطة ويُحَجِّم الحركة الإسلامية ، ويمسح كل منجزاتها التي حصلت عليها .

حدث هذا مع الإخوان المسلمين في مصر ، فبعد أن نشأت الحركة في ظل النظام الديمقراطي عام 1928م ، ونجحت في استقطاب الجماهير ، والتأثير في الشارع المصري ، وفي إحداث بعض التحولات في حياة الناس في اتجاه المحافظة على هويتهم وشخصيتهم في مواجهة تيار التغريب والعلمانية ، وفي اتجاه مواجهة أعداء الأمة الخارجيين وهم الإنجليز واليهود ، إذ بالحركة تُفاجأ باستلام الجيش السلطة في عام 1952م والبطش بشباب الحركة ورجالاتها عام 1954م وعام 1965م .

وحدث الشيء نفسه مع الجماعة الإسلامية في باكستان حيث أنشأ أبو الأعلى المودودي الجماعة الإسلامية في لاهور بعد استقلال باكستان عن الهند عام 1947م

وقيام النظام الديمقراطي ، وقد نجح أبو الأعلى المودودي نتيجة جهوده المتواصلة في إحداث تأثيرات جذرية على المستوى التشريعي ، ويتمثل ذلك في استصدار قرار من المجلس التأسيسي يسمى قرار المبادئ في آذار 1949م جاء فيه أنّ باكستان ستلتزم بالأخذ بالشريعة الإسلامية في كل القوانين التي ستصدرها ، وأنها ستراجع القوانين السابقة وتلغي ما يخالف الشريعة منها ، وأن حكومة باكستان لا تتصرف إلا ضمن الحدود التي رسمتها الشريعة ، ثم تابع أبو الأعلى المودودي جهوده ودعى إلى تدوين دستور إسلامي ، واستطاع عام 1956م أن ينجح في جعل السلطة التشريعية تقر دستورا يقوم على المبادئ التي أُقرّت في 1949م ، ومما اعترف به الدستور أنّ من واجبات الحكومة أن تعمل على إعداد المسلمين لقضاء حياتهم حسب

مبادئ الإسلام ، وتكييف أوضاعهم حسب ما يريده الإسلام وتعاليمه وتبذل الجهود لاستئصال المنكرات والأمور المنهي عنها في الشريعة الإسلامية وقد التزمت الحكومة في ذلك الدستور : بأن تعمل لسد باب الربا والفواحش وأن تقيم في البلاد العدالة الاجتماعية على الأسس الإسلامية .

وكان من المواد الثابتة المستقلة بهذا الدستور : أنْ لا يوضع في المستقبل قانون يخالف الكتاب والسنة وأنْ تغيّر بالتدريج القوانين الحاضرة حتى تصبح وفق أحكام الإسلام .

وكان مقرّراً أن تحصل انتخابات عام 1958م على أساس دستور 1956م لكن ثورة عسكرية وقعت عام 1958م بقيادة محمد أيوب خان ألغى فيها الدستور السابق ووضع دستورا جديدا عام 1962م كان

خاليا من المواد الإسلامية المذكورة في دستور 1956م .

إذن حدثت المفاجأة نفسها التي حدثت في مصر حيث تدخل الجيش عام 1958م وألغى كل المكاسب التي بنتها الجماعة الإسلامية ، ثم تكررت الظاهرة نفسها مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ في الجزائر ، حيث خاضت الجبهة الانتخابات عام 91 ، وحصلت على أغلبية المقاعد في الهيئة التشريعية ، لكن حدثت المفاجأة ذاتها حيث تدخل الجيش وألغى الانتخابات وألغى كل المكاسب التي حصلت عليها الجبهة ، إن استلام الجيش للسلطة في أمكنة وأزمنة متباعدة ، وإلغائه للنظام الديمقراطي في حال استفادة الحركة الإسلامية منه يجعل الأمر قانوناً وليس حادثا عابرا ، مع أن الحركة الإسلامية راهنت على النظام

الديمقراطي في الأقطار الثلاثة التي أخذناها كنموذج على سبيل المثال لا الحصر ، فالتجارب المتعثرة أكثر من ذلك ، والتاريخ يشهد على ذلك . فلماذا كان هذا التعثر ؟؟

إنّ أحد أسباب التعثر ناتج من عدم وعي الحركة الإسلامية للواقع المحيط بها الوعي السليم ، وعدم فهمها له الفهم الصحيح ويمكن أن نوضح ذلك ضمن النقاط التالية:

1- إن أي مُحَلِّل لجوهر السلطة في معظم بلدان العالم الثالث بعد الحرب العالمية الثانية ، إن لم يكن كلها مهما كانت الراية التي ترفعها سيجد أن الجيش هو جوهرها وهو قائدها ومحركها ، لذلك فإنّ قفز الجيش إلى الواجهة في الأمثلة التي درسناها ليس استثناء بل هو الأصل الطبيعي الذي يجب أن يحدث انطلاقا من

الحقيقة السابقة وإن عدم إدراك الحركة الإسلامية لتلك الحقيقة جعلها تتعامل مع المناخ الديمقراطي تعاملا جادا ، فتبنى نفسها البناء المناسب لهذا المناخ ، فتجتهد في توسيع خطابها وتكثير قاعدتها والإعلان عن قدراتها وإمكانياتها ، وتلتفت إلى المهرجانات والندوات إلخ... دون إعارة أدنى انتباه للمؤسسة العسكرية وإعداد الخطط المناسبة لها مع الوقوع في الظن أنها - أي المؤسسة العسكرية - مع الإطار الديمقراطي ، والوقوع في وهم أنها سياج النظام الديمقراطي ، إن عدم إدراك الحركة الإسلامية لجوهر السلطة وانخداعها بالإعلانات الديمقراطية هو الذي جعلها تتعثر ، وجعل بعض مكاسبها وجهودها تضيع أدراج الرياح ، ولا تستطيع أن تقترب من أهدافها بل تبتعد بعد ذلك التعثر .

2- إنّ المتفحص لأنظمة العالم الثالث بشكل عام والعالم الإسلامي بشكل خاص سيجد أن استقلالها غير حقيقي ، فقد زرع الاستعمار المفتونين والمتعلقين به في المراكز التي تصنع القرار ليبقى سيّدهم الذي يملي عليهم أي قرار يريده ، كما أبقى اقتصادها هشا ومرتبطا به بصورة من الصور ، كما صاغ كيان الدول وأجهزتها على الشاكلة التي تبقى مفتقرة إليه ، وكذلك بقي الجيش - الذي هو جوهر السلطة - مرتبطا بأكثر من خيط بالدول الاستعمارية ، لذلك حتى ولو أخلص الجيش الإخلاص الأكيد للديمقراطية الموجودة في بلده فإنه لا يملك أن يتصرف نحوها تصرفا ذاتيا وبحسابات ذاتية ، بل لا بد من أن تتدخل اليد الاستعمارية الغربية التي ستحرك الوضع بما يحقق أهداف الغرب في الكيد للإسلام والمكر به وإضعاف شوكته . إن

عدم إدراك الحركة الإسلامية لحقيقة تبعية الأنظمة وعدم استقلالها ، أو قل بصورة أدق عدم وضعها تلك الحقيقة موضع الاعتبار ، جعلها تتعثر ، فتصدق ما تقوله هذه الأنظمة عن الخضوع لإرادة الشعب ، والتسليم بنتائج صناديق الانتخابات لتأتي الحقيقة المُرّة موضحة خضوعها الذليل لإرادة الغرب الذي يملك تحريكها في أي وقت وفي أي اتجاه .

إن الحركة الإسلامية المعاصرة عاشت وهما كبيرا عندما ظنت أنها تستطيع أن تقيم الإسلام من خلال القنوات التي يطرحها النظام الديمقراطي ، وإن ما أوقعها في هذا الوهم هو عدم تعاملها مع حقيقة الأنظمة التي تقوم على عدم الاستقلال والتبعية للنظام الغربي وعلى أنّ الجيش هو جوهر السلطة ولُبُّها الرئيسي . هذا مظهر

واحد من مظاهر قصور الحركة الإسلامية في فهمها للواقع ، والحقيقة أن هناك مظاهر أخرى في مجالات أخرى ولكننا سنكتفي الآن بهذا المثال لأن المقام لا يتسع لأكثر من ذلك .

رابعا : القصور في مجال تحديد نظرية التغيير الإسلامية

تتخبط الحركات الإسلامية في خطوات عملها التغييري ، فهي حينا تعمل بالأساليب العلنية ، وإذا بها فجأة تنقلب إلى السرية ، وحينا تكون تعمل بأساليب سلميّة فإذا بها تنقلب إلى الأخذ بأساليب القوة والعنف من أجل تحقيق التغيير ، وحينا تجتهد في بناء المؤسسات ، وحينا آخر تهمل المؤسسات وتلتفت إلى بناء الإنسان على أساس أنه عماد التغيير ، وأحيانا تمدّ يدها إلى الحكام ، وأحيانا تقبض يدها وتعاديهم ، إن هذا التقلب والانقلاب عائد إلى أن هذه الحركات لم تحدد نظريتها في التغيير ، ولم تُبَلْوِر رأياً في كيف يكون التغيير ؟ وما هي مراحله ؟ وبمن يبدأ ؟ ثم

فيمن يثنى ؟ وما الذي نقوله للناس الآن وما الذي نُؤجِّل قوله ؟ ومن الذين نركز الهجوم عليهم ؟ ومتى يكون التبشير؟ ومتى يكون الإنذار ؟ وكيف يجب أن يكون موقفنا من الحكام ؟ إلخ ...

ليس من شك بأنّ الإسلام يملك أحْكَم وأصْوَب نظرية في التغيير فهذا دَأْب الرسل والأنبياء ، وهو هدف الصالحين ، وقد بين القرآن الكريم هذه النظرية أوضح تبيين وفصلتها سيرة الرسول ﷺ أحسن تفصيل . إنّ بَلْوَرة هذه النظرية ووضعها بشكل واضح أمام الدعاة العاملين في مسار التغيير يبعد الحركة الإسلامية عن الاضطراب والتخبط ويجعلها تحقق أهدافها في أقل التضحيات الممكنة وأسرع الأوقات المطلوبة ، وهذا ما قَصَّرَت فيه إلى الآن

مما جعلها تخسركثيرا من الجهود والأوقات .

خامسا : القصور في مجال تحديد أسباب الانحدار والعوامل التي أدت إلى ذلك :

لا تملك الحركة الإسلامية المعاصرة دراسة شاملة عميقة لأسباب انحدار الأمة ، ومراحل ذلك الانحدار ، والعوامل التي سببته و أيها أكثر فعلاً وتأثيراً ، وهي إن امتلكت بعض الدراسات فهي دراسة تنظر إلى جانب من انحدار الأمة وإلى عامل من عوامل الانحدار : العامل الاقتصادي أو السياسي أو العسكري إلخ ..... ، ولكنها لا تملك دراسة تحيط بتاريخ كل الانحدار في كل الأرض الإسلامية من خلال كل العوامل . إنّ عدم امتلاك الحركة الإسلامية لمثل هذه الرؤية الشاملة لانحدار الأمة

والعوامل المسببة لذلك ، جعلها تعالج أمراضا ليس لها الأولوية ، و تهدر أوقات و طاقات في أمور لا تأثير لها ، و تلتفت إلى عوامل لا طائل تحتها ، وكل ذلك بسبب النظرة الجزئية والمحدودة لتاريخ الانحدار.

إن الرُؤْية المُعَمَّقَة لمسيرة انحدار الأمة وتحديد مراحل ذلك الانحدار والعوامل التي سببت ذلك يساعد كثيرا على إدراك العوامل التي أوْهَنَت المسلم المعاصر و على تشخيص أمراضه ، و يساعد بالتالي على تصنيف الأمراض و تحديد أولويات العلاج .

إنّ وجود هذه الرؤية المعمقة الشاملة يبعد الحركة الإسلامية عن الارتجال في علاج الأمراض ، وعن التسرع في اختيار المراحل ، وعن السطحية في تحديد عوامل النهوض ، بل تُوَلِّد الدراسة السابقة عُمْقاً في

النظرة ، و نُضْجاً في التشخيص ، واتزاناً في تحديد العلاج ، ودقة في إنزال الأحكام الشرعية على أرض الواقع المدروس .

سادسا : القصور في مجال تقويم التجارب الإسلامية المعاصرة :

قامت تجارب إسلامية متعددة في عدد كبير من الساحات ، قامت تجربة حسن البنا في مصر ، ونجح في ترسيخ بعض القيم في الواقع المصري وتعثر في بعض المجالات ، وواجه صعوبات جمة ، وترك تجربة غنية لها إيجابيتها وسلبياتها ، امتدت ما يزيد عن عشرين سنة تحت قيادته ، وانتقل تأثيرها إلى عدد من الأقطار العربية والإسلامية ، لكن أين التقويم التفصيلي لهذه التجربة ؟ فيم نجحت ؟ وفيم فشلت ؟ وأين القصور فيها ؟ وما لذي يمكن أن نبني

عليه في مراحل قادمة ؟ و ما الذي يجب أن نتجنبه في المستقبل ؟ وأين كان الخطأ وفيم كان الصواب ؟ الخ ..... إنك أن وجدت إجابة على بعض الأسئلة السابقة فإنك تجده بشكل سطحي وليس بالعمق المناسب ، وإنك لا تجد - في كل الأحوال - إجابة شاملة ولا دراسة تحيط بكل جوانب التجربة ، وتعطيك دروسا وعبرا تستفيد منها ، لتبني عليها عملك اللاحق ، لتتجنب العثرات ، ولتبتعد عن المعيقات ، وتستثمر الإيجابيات .

أقام أبو الأعلى المودودي ، جماعة في بلد إسلامي هو باكستان ، ونهج نهجا معينا في دعوته ، وطرح آراء شرعية في مجالات متعددة ، كما طرح آراءه الإسلامية في عشرات الكتب ، وسوَّد آلاف الصفحات في توضيح الإسلام ، ودعا إلى جماعته في

مجلة استمرت تصدر أكثر من نصف قرن ، وصادم الواقع الباكستاني في أكثر من مجال ، واجتهد أن يجعل الإسلام هو الأصل في حياة باكستان .

إن هذه التجربة الطويلة العريضة الممتدة لعدة عقود وعلى طول الأرض الهندية أين تقويمها ؟ أين حصر إيجابياتها وسلبياتها ؟ لماذا تعثرت ؟ أين تقويم ما كتبه الأعلى المودودي ؟ هل كل ما كتبه كان صوابا ؟ هل كل ما كتبه كان مجانبا للصواب ؟ لانظن ذلك ، إذن أين جوانب الصواب والخطأ فيما كتب ودعا إليه ؟ في أي الجوانب كان أكثر صوابا ؟ وما الذي أبدع فيه ؟ وما هي المدارس التي تأثر فيها ؟ ما قيمة نقده للحضارة الغربية ؟ الخ ......

أسئلة وأسئلة أخرى كثيرة ، لا تجد جوابا لها في نطاق المكتبة الإسلامية مع أنه يفترض أن تكون قد درست إنتاج أبي الأعلى المودودي الفكري ، ودرست تجربته في العمل دراسة تفصيلية عميقة وافية وحددت الإيجابيات والسلبيات بشكل دقيق ومقنن من أجل أن تبني عليها الأجيال اللاحقة لكننا لا نجد من ذلك إلا النزر اليسير ([3]) .

إن تقويم الأعمال السابقة وبناء اللاحق على السابق نهج قرآني وسنة نبوية ، فقد تحدث القرآن الكريم عن كثير من الوقائع التي مر بها المجتمع الإسلامي في

---

[3] سيصدر لي كتاب عن أبي الأعلى المودودي رحمه الله و جماعته خلال فترة قريبة إن شاء الله تعالى ، و سيقوّم أمرين : الأول فكره في كل المجالات ، و الثاني : منهجه في التغيير .

المدينة رصد وقائعها ، وبين أسبابها ووضح نتائجها ومن ذلك غزوة بدر أولى غزوات الرسول ﷺ ، فقد بيّن القرآن الكريم سبب
خروجهم من المدينة ، وكرههم القتال ، ورغبتهم في الغنيمة ، وضح كل ذلك فقال تعالى : { كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ، يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ . وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ . لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } (سورة الأنفال ، 5 - 8).

ثم وضّح استغاثتهم ربهم ، وتغشيتهم النعاس وإنزال المطر الذي طهرهم وثبت به أقدامهم فقال تعالى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ . وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ }. (سورة الأنفال 9-11) .

وبين مكان وقوف المؤمنين ووقوف الكافرين وأن ذلك كان بقدر من الله سبحانه وتعالى ، ووضح كيف كانت رؤية المؤمنين للكافرين في المنام ، وكيف كانت رؤية

الكافرين للمؤمنين وأثر ذلك في سير المعركة فقال تعالى : { إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . وَإِذْ يُرِيكَهُمُ اللّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي

أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ} (سورة الأنفال 42- 44).

ولم يتوقف كلام القرآن الكريم عن واقع الغزوات ، بل تعدى ذلك إلى استخلاص العبر منها وإرشاد المسلمين إلى أخطائهم ، وتوجيههم إلى التصرف الأولى والأفضل ويمكن أن نمثل لذلك بغزوة أحد التي كانت معلما مستقلا من معالم سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد خالف الصحابة رغبة الرسول في البقاء في المدينة قبل الغزوة ، وخالف الرماة أمره في البقاء في أماكنهم حامين ظهور المسلمين أثناء الغزوة فكانت النتيجة أن انفتحت ثغرة نفذ منها المشركون وقلبوا سير المعركة فبعد أن كانت انتصارا أصبحت هزيمة ، وفر المسلمون من أرض المعركة رغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يناديهم

: إلىّ عباد الله ، إلىّ عباد الله ، وكل ذلك بسبب إرادة بعض المسلمين للدنيا فقال تعالى : { وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ . إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } (سورة آل عمران 152-153).

ثم جاء درس آخر أكثر فبينت آية أخرى أن هزيمة بعض المسلمين وفرارهم كان بسبب ذنوب ارتكبوها فقال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ } (سورة آل عمران-155).

هذا كلام القرآن الكريم عن غزوتين : واقعهما والعبر المستفادة منهما ، وقد بنى المسلمون مسيرتهم بعد ذلك على الإحسان الذي أحسنوه في هاتين المعركتين ، وعلى تجنب الأخطاء التي وقعوا فيها في المعارك السابقة ، لذلك كانوا ينتقلون من نجاح إلى نجاح ، ومن خير إلى خير ، لأنهم كانوا يبنون عملهم اللاحق على دراسة العمل السابق وتقويمه ، وقد كان هذا دأب القرآن الكريم والرسول العظيم مع المسلمين في

كل غزوة و في كل تصرف وفي كل مواجهة ، أن يقوّم تصرفاتهم السابقة وأن يقول لهم أحسنتم في كذا وأسأتم في كذا حتى أصبح تقويم الأعمال نهجا مقررا وسنة متبعة .

إنّ عدم اتباعنا لهذا النهج القرآني النبوي جعل كثيرا من حركاتنا الإسلامية تُكرّر أخطاء مَن سبقها ، وتقع في نفس الحفر التي وقعت فيها الحركة السابقة ، مما أضاع جهوداً وأوقاتاً ، وأهدر أموالاً ودماءً كان أحرى بأنْ تُوَظّف في مجال البناء .

سابعا: القصور في اعتماد القطرية :

الإسلام دين عالمي يؤاخي بين كل الشعوب والأعراق والأجناس والقبائل ، ويجمع بينها تحت رابطة الإيمان بالله والأخوة في الله ، قال تعالى : { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } (سورة الحجرات-10) ، وقال تعالى :{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } (سورة الحجرات - 13)، لذلك لا يخص الإسلام شعبا دون شعب ، ولا قبيلة دون قبيلة ، إنما يدعو الجميع ليكونوا أمة واحدة يجمعها الإيمان بالرب الواحد ، قال تعالى { إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ

فَاعْبُدُونِ } (سورة الأنبياء - 92) ، وقد حقق الإسلام فيما سبق هذه الأمة الواحدة التي احتوت في كيانها العرب والأتراك والفرس والهنود والأفارقة الخ ... ، وكان على الدعوةالإسلامية أن تحقق هذه الميزة في حركتها المعاصرة فتجعل كل الأرض الإسلامية ساحة لها ، وتستفيد من كل حركة القوى الخيرة المبثوثة في كل الجسم الإسلامي ، لكننا بكل أسف على العكس من ذلك نجد أن كل حركة إسلامية التزمت في تنظيمها وقيادتها وترابطها ونشاطها الدعوي التقسيمات التي رسمها الاستعمار لأقطارنا مؤخّراً ، فلكل بلد حركة اسلامية مستقلة في قيادتها وفي اطارها التنظيمي وفي مخططاتها ، لاتتجاوز قطرها ، مما فوت عليها خيرا كثيرا كان يمكن أن تستفيده من أخوتها الآخرين .

إن على الحركة الإسلامية أن تتجاوز القطرية في قيادتها وإطارها ونشاطها وتخطيطها ، وتتجه إلى العالمية فإن ذلك يوسع نطاق الرؤية ، ويمنح القوة ، ويوسع من فرص نجاح الدعوة الإسلامية . **فهل هي آخذة بذلك ؟**

والآن : هذه هي بعض مجالات القصور باختصار ودون تفصيل في عمل الحركة الإسلامية ويحتاج الموضوع في الحقيقة إلى دراسات لأن إدراك مجالات القصور في عملنا الدعوي الحالي بداية النجاح ، فنأمل أن نكون قد ساهمنا في توجيه الأنظار إلى بعض القصور الذي نعانيه ، لنتجنبه ولنتوصل إلى بناء الحركة الإسلامية خالية من أي قصور وضعف .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

